تداعيات الحزن والشكوى عند الشاعر أنور العطار

هدى عدنان عباس

جامعة كربلاء- كلية التربية للعلوم الانسانية

أ.د جهانكيزي أميري

أ.د علي سليمي

أ.م.د مريم رحمتي

جامعة الرازي - كرمنشاه - ايران

The Implications of Grief and Complaint in the Poetry of Anwar al-Attar

Huda Adnan Abbas

Prof. Dr. Jahangizi Amiri

Prof. Dr. Ali Salimi

Asst. Prof. Dr. Maryam Rahmati

https://doi.org/10.64704/dawat.2026124813

ملخص البحث

يفضي البحث إلى دراسة تداعيات تجربة الحزن و الشكوى في شعر العطار، واستكناه بواعثها ومظاهرها والأسباب المؤدية إليها، فضلا عن معرفة الآليات التي اتكأ عليها العطار للتعبير عن تجربته الخاصة.

وقد اعتمد البحث على المنهج الوصفي، و الاستئناس بمدلولات المنهج الوصفي في استقراء الوضع النفسي بغية بيان مواضع الحزن في شعر العطار، وإيضاح البواعث التي جعلته يحزن ويتألم عبر النصوص الشعرية عنده ، وقد تطلبت طبيعة تقسيمه على مبحثين ثم خاتمة، أما المبحث الأول فعنوانه: بواعث الحزن ومظاهره في شعر العطار ، وقد تضمن المطلب الأول: الإخفاق في الحب باعثاً للحزن عند العطار. والآخر : الموت باعثاً للحزن عند العطار ؛ أمّا المبحث الثاني فاختصّ بالشكوى والألم، إذ تضمن المطلب الأول الشكوى الذاتية، والمطلب الثاني سلّط الضوء على الشكوى من الدهر، والمطلب الثالث يتضمن الموسيقى الشعرية.

الكلمات المفتاحية : الحزن – دوافع الحزن – الموت – الشكوى.

Abstract

This research aims to study the implications of grief and complaint in al-Attar›s poetry, exploring its motives, manifestations, and underlying causes, as well as identifying the mechanisms al-Attar employed to express his personal experience. This research adopted a descriptive approach, drawing upon its implications to analyze the psychological state of Attar in order to identify the sources of sadness in his poetry and clarify the motives that caused him to grieve and suffer, as revealed in his poetic texts. The nature of the research necessitated its division into two sections and a conclusion. The first section, entitled «Motives and Manifestations of Grief in Attar›s Poetry,» included two subsections: the first on romantic failure as a cause of sadness for Attar, and the second on death as a cause of sadness for Attar. The second section focused on complaint and pain, with the first subsection addressing personal lament, the second highlighting complaints about fate, and the third examining poetic rhythm.

Keywords: Grief - Motives for Sadness - Death – Complaint

المقدمة

الحزن عاطفة إنسانية وجدت مذ وجد الإنسان، فلم تكن وليدة اللحظة، بل قديمة قدم الإنسانية، والشعر العربي منذ العصر الجاهلي حتى يومنا هذا يحفل بتلك النغمة الحزينة، التي تتردد أصداؤها عبر الأصوات الشعرية. والعطار واحد من الشعراء الذين تزخر أشعارهم بمعاني الحزن بتفصيل عميق. وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن ملامح ظاهرة الحزن عنده، واستكناه بواعثها ومظاهرها والأسباب المؤدية إليها، فضلا عن معرفة الآليات التي اتكأ عليها العطار للتعبير عن تجربته الحزينة.

أسباب اختيار الموضوع: لقد أثارتني هذه الظاهرة في شعر العطار عندما تأملت أشعاره، فوجدت في كلماته نبرات حزينة، تنم عن قلق ويأس، وحيرة وضياع، وغربة وتشرد، ومن ثم فقد اتخذت من شعره وجهة لتأملي، وموضوعا لبحثي؛ رغبة في تقصي أبعاد هذه الظاهرة، ومعرفة بواعثها ومظاهرها وآليات التعبير عنها.

المبحث الأول: بواعث الحزن ومظاهره عند العطار

لابد من الإشارة إلى أن شعر الحزن يختلف عن شعر الرثاء، صحيح أن الاثنين يحملان في معانيهما البكاء، إلا أنَّ الأول أعـمّ وأشمل، إذ يدرس الحالة النفسية للشاعر وما يعتريها من هموم وآلام ممزوجة بالحب والحنين إلى الأحبة، فهو من أكثر الموضوعات اتصالا بالنفس البشرية. كما أنه يتغلغل إلى القلب ويستولى على الفؤاد من الوهلة الأولى.

وتأسيسا على ذلك، فقد تأثر شاعرنا بالبيئة والواقع الاجتماعي من حوله، وصور عن هذا التأثر تلك القصائد التي عبر فيها عما شغل فكره وأقلق حياته من أمور، وما يتعلق بحياته الاجتماعية، وقد نتج عن هذا التأثر موضوعنا الذي نحن بصدد دراسته والذي يشكل محورا دارت حوله الكثير من أشعاره، فكان موضوعا بارزا يستدعي الوقوف عنده ومناقشته، ومحاولة الولوج إلى بواعثه، فالشعر ((يبقى ترجمة فنية للمعاني الفكرية التي لونت الحضارة الإنسانية بألوان فلسفية متعددة تلخص تجارب الإنسان

وخبراته من خلال الممارسة الحقيقية والملاحظة لأطراف الحياة المختلفة، تلك الحياة التي أوحت للإنسان بتفاسير لكل ظاهرة في الوجود))[١] .

يعد الحزن نفسه باعثا قويا وعاطفة متوقدة، لابد لها من جذوة تشعلها وتبقيها مشتعلة، فضلا عن أن الحديث عن الباعث الأدبي ومحفزاته طويل ومتشعب وقديم (حيث ظهر في النقد العربي القديم، ولكنه اختص غالبا بالشعر، لكون الشعر ديوان العرب وفنهم الأول حينذاك، ولكن حديثهم يمكن أن يعم الأدب بكل أجناسه، فذات الأديب واحدة، والمؤثرات أيضا)[٢]. والجدير بالذكر أنه مهما تضافرت البواعث وتعددت، فلن تنتج أدبا راقيا، ما لم تتوافر لدى الأديب موهبة حقيقة، حيث إن العاطفة وحدها غير كافية، حيث تستند إلى أساس متين من الحس الأدبي، وهو ما يضمن ظهورها على صورة نص أدبي إبداعي مؤثر، فالبواعث تتعدد وتتباين؛ تبعاً لنفسية الأديب وبيئته، (كما أن الانفعالات لا حصر لها، وكل موقف له انفعاله الخاص من حيث القوة والضعف والكثرة والقلة)[٣] .

وللحزن (بواعث تثيره وتحركه وهي كثيرة ومتنوعة، تتفاوت حرارة وفتورا، وقوة وضعفا)[٤]

فضلا عن أن علاقة الإنسان بالحزن و كذلك علاقته بالفن هما علاقتان أزليتان، فمنذ خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وكوّنه وأودع فيه من الأحاسيس والمشاعر ما يستطيع به الاندماج في مجتمعه، والتفاعل مع الاحداث، ومنذ ذلك الحين والإنسان((يعاني أزمة الحياة وما فيها من خير وشر، وورد وشوك، وأمل ويأس، ونور وظلمة وسرور وحزن فليست حياة الإنسان مشرقة دائما ولا ظلمة دائما، بل تلتقي فيها الصفحتان، تارة تكون نقية مشرقة صافية، وتارة تكون كدرة قائمة)[٥]، ويرى علماء النفس أن (الحزن من الانفعالات والمشاعر التي تثيرها الحواس وتصاحب السلوك، ولها خاصية الإدراك والإرسال، بمعنى أننا ندركها، ونشعر بأثرها فينا، وأيضا نبديها للغير)[٦]، ويمكن القول إنَّ علاقة الإنسان بالفن موغلة فى القدم؛ لذا يقول

إرنست فيشر: (إنَّ عمر الفن يوشك أن يكون هو عمر الإنسان، فالفن صورة من صور العمل، والعمل هو النشاط المميز للجنس البشري)[٧]؛ فقد طبعت ظاهرة الحزن الشعر العربي المعاصر بطابع خاص، وتبدو مظاهرها في أشعار عدد من الشعراء المعاصرين،إذ تبدو في أشعارهم النزعة التشاؤمية والكآبة والحزن المرير على المستوى الفردي والجماعي، ومن بواعث هذه المظاهر، الاستبطان النفسي، و تعني الغوص في أعماق النفس الإنسانية، و الكشف عن أشكال السخط على الواقع وغيرها من العوامل التي جعلت لهذه الظاهرة مكانها في العديد من أشعار الشعراء المحدثين ومن المعتقد أن الألم والحزن كانا مفجرين اعتمدهما كثير من الشعراء في إنتاج آثار خالده، وهما يعدان منبعاً متدفقا من منابع الالهام، يقول: [٨]

أنا في عزلتي يطيف بي الرعب
فأبكي من طول شجي وأفرق
تعتريني الهموم فالطرف حير
ان مندى من الدموع مؤرق
وجناني ولهان يرمضه الحب
ويذكو به الجوى إن تشوق

يرسم لنا العطار لوحة شعرية مفعمة بالحزن فالمحب بسبب ما يعانيه من ألم الفراق يولد في نفسه معاناة تخرج من أعماق النفس المعذبة على شكل شكوى .

ومن قوله[٩] :

عاد الربيع وما عـاد الأحبـاء
لا الزهر زهرٌ ولا الأنداء أنداء
يظل يسألني عنهم بـلا سـأم
قلب يعيش بهم والقلب أهواءُ
كانوا به أمس أشواقا مبرحـة
واليوم هم فيه أحلام وأصـداء
مات الهوى فيه إلا همس هامسة
لـها الأضالع ساحاتٌ وأبهاءُ
فيا ربيع الهوى لا زلـت مؤتلقا
يرف فيك الشذى والزهر والماءُ
لقيت فيـك أحبائـي وظللنـي
من سرحة الحب أحناء وأفيـاء

هذا النفس الشعري الهادئ المتئد، وهذا التدفق التعبيري في يسر وسلاسة، وهذا الوجد بالطبيعة الخارجية والذوبان فيها معادلا ومكافئاً لطبيعة النفس والروح؛هي عناصر أساسية تطالعنا

في كثير من إبداعات العطار، استجابة لطبيعته التأملية التي من أدواتها البصر والتصور والعظة والاعتبار ومحاولة الوصول الدائبة إلى ما وراء المنظور والامتزاج بكل ما هو لصيق بالنفس فنجد النص الشعري حافلًا بألفاظ الحب

وفيما يأتي استعراض لما ظهر من بواعث للحزن ومظاهره في شعر العطار:

المطلب الأول: الإخفاق في الحب

تشكل ظاهرة حب المرأة ألما كبيرا عند الشعراء، حيث تناولوها كثيرا، ويظهر الانشغال بالحب من غزارة الأسماء التي وسم بها الشعراء ما عانوه من المرأة، فأسموه بالحب، والهوى، والصبابة، والعشق، والشجن، والوصب، والحزن، والكمد، والحرق، والسهد، والأرق، والحنين، واللوعة، والغرام، والهيام، والوله، وغير ذلك من المسميات العديدة التي جاءت على ألسنة الشعراء حملت دلالات تعبر عن رؤى وتجارب شعرية معاصرة. أما المرأة عند شاعرنا فمختلف الحديث عنها لأنّ تعامله مع موضوع المرأة كان لاعتبارات كثيرة، فقد مثلت حبيبة من جهة وابنته من جهة أخرى، ارتبطت بالوطن (الأرض)، لهذا تربّعت المرأة على عرش المنجز الشعري[١٠] واحتلّت الجزء الأكبر في فكره و أشار في كتابته قائلا: [١١]

أتدرين أنك أحلاميـــــه
وأنـــــك أعـذب أنغاميـــــه
وأن خيالك فـــي خاطري
يرف كزنبقـــــة ناديـــــــة
وأنك أشعاري الهاجسات
بنفسي في العزلة القاسية

جنح الشاعر في هذه الأبيات إلى أسلوب الاستفهام في البوح عما في جوانحه من ألم وحزن عبر تساؤل طرحه على نفسه فهذا التساؤل الذي طرحه أشبه بالحديث مع النفس فاعتمد الاستفهام بالهمزة كآلة للتعبير يوصل منها جمال الشكل وعمق الفكرة للمتلقي وربما جاء بهذا الاستفهام دلالة على التشويق.

ويوحي الشاعر بقرب الحبيبة من نفسه وشدة تعلقه بها، وكأنه يهمس الكلام إليها لقرب وقوعها في قلبه إذ استخدم الاستفهام الإنكاري بـ(الهمزة)،فالمشهد الحواري الذي استخدمه

الشاعر صوّره أحداثًا معاشة، فقد جمع في هذه الأبيات سهولة الألفاظ ورقة المعاني الرومانسية المشحونة بالعاطفة،وتكرار (أنك) في النص أظهرت مدى التعلق بينهما،وخيالها لم يفارقه وهذا يدل على الارتباط الوثيق بينهما،فالتكرار اللفظي أسهم بشكل واضح في بث نغم حزين مشحون بالحب والحنين والنجوى، فهو يعود إليها مرارا وتكرارا، ويُعد الخيال كما رأينا استجابة ملحة في نفس الرومانسي،ولكنه يصور ألمًا وحزنا يقود الأمل فيه إلى آفاق فسيحة في جوانب التعس الإنسانية، ومما أورده بحق ابنته قوله[١٢]:

بنيتي عصفورة شاديـــــــــة
تلعب في عش الصبا لاهية
بنيتي لحـــــــن رقيق سرت
في مهجتي أفراحه صافيـــة
يهفو إليها القلب من وجده
فتنتشي أحلامه الماضيـــة
بنيتي شعـــــــر تغنت بـــــه
روحي في عزلتها الساجيـــة
بنيتي وحي تلقيته
مـــن نفحة عطرية ساريـــة

هذه اللوحة التي أوردها الشاعر بتكرار لفظة (بنيتي) ليعزز الإيقاع الذي يرسم شدة المعاناة النفسية الملقاة على الشاعر، وهذا التكرار يفضي إلى رفع الحالة الشعورية ويزيد نصه جمالًا وزينة وعلى الرغم من بساطة التكرار وعفويته لكنه عكس حالة الشاعر الانفعالية المتأثرة بسبب البعد وما يكمن في داخله من حب لابنته فأبرز بذلك قدرته على التأثير والإيحاء، فالشاعر وجد في هذا التكرار صور من صورًا التلاحم والتضافر الفني ليدلل على إحساسه الغزلي الشفيف وصوره الرومانسية المتلاحمة، وهذا التكرار من شأنه أن يرفع وتيرة الإيقاع إثر تتابع التكرار في الفاتحات السطرية تتابعاً فنياً موحياً. يقول[١٣] :

ياحبيبي أفق فقد ضحك الروض
وأبدى جمـــاله المحجوبـــــــا
واستعاد الوادي الأنيس سنـــــاه
وبنى الطير عشه المخروبا
طرب القلب فانتشى وتغنـــــى
ومن الحب أن أعيش طروبا
وأنا الشاعر الذي يغمر الأرواح
ضحـــكا ومـــــــا يريم كئيبـــا

في فؤادي اللهيف داء قد استعـ
صى وجرح يمضني تعذيبـــا

الصيغة الطلبية التي أوردها الشاعر من فعل الأمر (أفق) ووجد الشاعر بذلك متنفساً يتخذه للترويح عن نفسه فما حدث من تغير من استعادة الوادي سناه وبناء الطير لعشه إثارة الطمأنينة في قلبه وهذا الطلب خرج إلى الالتماس؛ فقد امتاز شعره الوجداني بالسهولة والوضوح، فقليلاً ما نجد فيه لفظة جافية، أو كلمة صعبة،، أو معنى بعيد المتناول، فهو يستخدم ألفاظه ويبني عباراته بوعي لغوي وفني يدلّ على شدّة إحساسه بالعلاقات بين الكلمات وتآلفها في سياق شعري جميل،فالأبيات تأتلف في جو عاطفي متسق، وقد تعاقبت فيها الألفاظ ذات الدلالات الوجدانية المتداخلة على نحو أشاع فيها نغماً حزيناً، وإيقاعاً متموّجاً، يُجسده هذا الحوار بين الشاعر وما يحب، وما تخلله من استفهام يُعبر عن مشاعره، وتكثر في شعر العطار مثل هذه اللقطات الحوارية التي تتآزر فيها عناصر الصياغة الشعرية من ألفاظ ومقابلة وصور وإيقاع.

كما في قوله[١٤] :

وأناجي وما أمل المناجا
وأصبو وللهوى استرســـال
ونفسي لحن حبيب يسلينـ
ي وحلم يهفو إليه البال
وتصاوير من رباعي شتى
مالها الدهر في الوجود مثال
هي سلواي إن أظلني الهم
ومادت بـــــي الخوب الطوال
نهل الحب من مناعمها الزهر
وضاءت بسحرها الأشكـــــال

من الجدير بالذكر أنه لا يُعرف حب دون عذاب، ولا عشق بلا شقاء، إلا فيما قل أو ندر، وإذا ما اعترضت المرء خيبة أمل في هذه المجالات، فسرعان ما يتسلل الحزن إلى قلب المحب، والكآبة إلى نفسه كرد فعل طبيعي للفشل والإخفاق اللذين مُنِيَ بهما الإنسان في هذا الشأن. فالإخفاق في تحقيق الحب وسوء التكيف العاطفي يسببان الحزن والألم، وذلك أن الحياة لا تعني للمحب شيئا، إذا لم يتحقق له النجاح، فالنجاح يكفل لنا الشعور بالرضا، وبالقيمة الذاتية[١٥]، وهذا ما جعل الشعراء الذين فشلوا في حبهم

يرسمون لنا صورا سوداوية متشائمة؛ ولذلك قيل: (إنه لا يكفي أن يبلغ الإنسان مرتبة الحب، بل يجب أن يحتفظ بها، وهو غالبا ما يفشل)[١٦].

المطلب الثاني: الموت

تعد قضية الموت متعلقة بكل قضايا الإنسان ومشكلاته، فهي (محور كل المشكلات الإنسانية التي تتمثل في إطارها العام في الالتزام والاغتراب. كما نجد أنها محور المشكلات الإنسانية التي ترتبط بهذه القضايا والمواقف التي تتمثل في الحب والخير والشر والحرب والسلام والمتعة والألم)[١٧]

والجدير بالذكر أن الموت قد احتل موقعا بارزا في شعر العطار، حين عبر عن تجربته الحزينة، كما أن المتأمل في شعر الموت عند العطار يجـده متنوعا، تعددت محاور الموت في شعره لما في تأملاته من بعد فلسفي وصوت باحث عن الحقيقة، وسنحاول من ذلك رصد عدد من النصوص الشعرية وتحليلها وتأويلها منها قوله[١٨]:

غفلت عني المنون فغنيت
ولـحن الحياة لحن قصيـرُ
أتعامى عن الفناء وحولي
محن ليس تنقضي وثبـور
ألمي صارخ وجرحي ضري
والهوى يائسٌ وجـدي عثورُ
وبنفسي قيثارة تتشكـــــى
وأنا الدَّمع والآسى والشعورُ

يعرض الشاعر الرومانسي هنا هاجس الموت والقلق بأن الحياة قصيرة فالشاعر أوضح الحالة التي يعيشها فعندما يخلو إلى نفسه يعود إلى حزنه وآلمه الداخلي فالحياة قصيرة والمنون قادمة، عرض الشاعر عودة انكسارية في هذا النص بينتها مفرداته (المنون / اللحن القصير / الفناء/ الألم / الجرح / اليأس) هذه هي فلسفة الشاعر الرومانسي حديث الذات بيَّن أن الذات الشاعرة محيطة بالحزن والألم والمحن و كان فضاء النص فضاءً حزيناً، والرؤية فيه رؤية ذاتية لكنها إنسانية وشاملة فيها التأمل بالمصير، لكن النص بِبعده العام قراءة كونية للحياة والفناء.

وقد جاء شعر التأمل بصور تشاؤمية تعبر عن حيرة نفوس الشعراء

وتمردهم على الحياة والمجتمع، وربما كان مبعث تأملهم هو ذلك القلق الاجتماعي وتمزقهم النفسي، فكان شعراء الرومانسية يكثرون الخلوة إلى أنفسهم ويتأملون مع هدأة الليل، فيتعاطون التفكر في الظواهر الكونية التي لا تسعها عقولهم وقد يكون سبب ذلك هو فضولهم العقلي ونظراتهم الفلسفية إزاء الخلق والطبيعة، وما يتصل بها من حياة أو موت[١٩].

فالتأمل هنا هو التركيز لإيجاد وصف دقيق وتفسير موضوعي لظاهرة معينة دون التوقف عند التقنيات والمحررات، التي تجعل من العملية عملية معقدة، فالتأمل يعني تيسير الفكرة وتبسيطها وسياقها بالشكل الذي يجلب انتباه المتلقي على أساس أنها قد سقيت بأسلوب أدبي شفاف وبألفاظ سهلة على الفهم مع كشف واضح للأفكار وبهذا يكون الشاعر الرومانسي قد اجتهد في اصطياد الفكرة ووضعها ضمن إطار لوحي إبداعي.

المبحث الثاني: الشكوى و الألم

المطلب الأول: الشكوى الذاتية

تنشأ الشكوى من مصادر مختلفة، فمنها ما يعود إلى عدم تحقيق الطموحات والإحساس بالإحباط والفشل فيها، ومنها ما ينبعث من الظروف السائدة على المجتمع الأخلاقية والسياسية والدينية، ومنها ما ينشأ عن خصائص الشخص النفسية وما جبل عليه. فمن هذا المنطلق، تعدّ الشكوى ذلك الطريق الوحيد للإبانة عن الوجع الداخلي الذي يعانيه الإنسان إزالة للهموم والآلام؛ إذ تتميز الشكوى عن بقية الموضوعات الشعرية بفقدان التصنّع وتفيض بالمكابدة والوجد و الشكوى النفسية وتعكس حالة نفس الإنسان، وتظهر ما يعاني الإنسان من الاكتئاب والحزن والانطواء، ويبكي أحيانا، وقد يفكر في الانتحار. ويبرز فيها العوارض الجسدية أو النفسية، وقد تعبّر الشكوى عن ضعف إرادة الإنسان، أو ضعف إيمانه، أو تعدّ نقصا أو تقصيرا أو خللا في شخصيته، لكن الإنسان حقيقة يميل إلى الشكوى لأنها عند بعض الناس وسيلة التنفيس عما يتغلغل في النفس

البشرية؛ والشكوى الشخصية تعبير عما يلامس ذات الإنسان من المؤثرات الخارجية والعوامل الاجتماعية كالحسرة على الفائت والسعي بلا جد والإخفاق بعد معاملة الناس. وتعكس همومًا ذاتية وأحزانًا فردية. وأحيانا تؤدّي الظروف الخارجية إلى المشاكل النفسية وهنا يبرز الشعراء الذين عبروا عن همومهم الذاتية، وشكواهم الخاصة عن طريق رؤيتهم المنبثقة من موقفهم والنابعة من تجربتهم الشعرية الخاصة[٢٠].

ومنه قوله[٢١]:

يا هاجري أوسعتني حسرة
قلبي معنى والجوى مستثار
أعيش للبلوى ومرّ الضنى في
ناظري جمر وفي الصدر نار
يشوقني الحب وأوجاعه
وما حوى من قلق أو إسـار
وانتشي من ذكريات الهوى
كـأنما تلك الأمـاني خمـار

توجه الشاعر بالنداء للحبيبة بألفاظ صريحة (حسرة، قلبي، الجوى، جمر،اشتياق، قلق، ذكريات، الأماني) كلها ألفاظ موحية وصادقة بث عبرها حنينه وأشواقه للمحب فذات الشاعر ذات محبة معذبة منكسرة رسم الشاعر صورة معبرة مفعمة بالحزن والألم والأسى لما يعانيه من البعد فجسد عبر مناجاته شكوى فلم يجد الشاعر منفذاً يعبر به عما في داخله وما يعانيه من حسرة وفراق واضطراب من جراء الفراق سوى الشكوى، وفراق الأحبة يولدّ معاناة تخرج من أعماق النفس المعذبة و غيرها من الألفاظ والتعابير الدالة على التحرر، وكثيرا ما استخدم الشعراء الرومانسيون الكلمات الموحية التي تصور إحساسهم الأصيل من مشاعر وانفعالات محملة بدلالات شعورية جمالية ليعبروا بها عن مشاعرهم عبر أساليب التعبير عن الألم والتحسر والتمني ومنها قوله:[٢٢]

تجردت من صفة الهالكين
ومتعت بالصفة الباقيـة
وأنسيت أني ابن هذا التراب
وضجعته المرة الباغيـة
وقد غبت عني كأن لم أكن
سوى نفحة سمحة عالية
بكاء عـلى أمـل لامع
تطاير في الفينة الصاحية

وفي خلوة الحقلِ نبع حبيبٌ
يهـدهد أوجاعــهُ الباكيــة
كأنَ على النبع قيثـــــارة
تـــنوع مــلوَّعــة شاكيـــــة

الأفعال التي جاء بها الشاعر مشحونة بالعذاب واللوعة (تجردت، أنسيت، يهدهد) وأي بكاء بكاء الحزن بكاء الحرمان وخيبة الأمل واليأس

ويعد البكاء مصدرا من مصادر الراحة النفسية وأثرا من آثار الحزن فقد تلوذ به نفس الشاعر في حالات كثيرة من السأم والوحدة والعزلة واضطراب المواقف[٢٣].

ويعد البكاء من أقسى اللغات وقعاً على الآذان، إذ يصل إلى أذن المتلقي بشكل فصيح، فهو لغة ناطقة دون حروف،حتى يؤدي البكاء من أدائه ورموزه إلى حزن الآخرين.

المطلب الثاني: الشكوى من الدهر

للشاعر حكاية مع الدهر، ليجسد عبرها حتمية الموت، فالشاعر مؤمن بقضاء الله وقدره ولكن الموت يبقى الهاجس الوحيد الذي يقلق الشاعر والإنسان ككل، وقد تأمل الدهر بمصطلحات مختلفة: الدهر، والليالي، ويصف الدهر بقوله[٢٤]:

أهدهد أوجاعي الصارخـــــات
وأرقدها بالمنى والملـــــح
سكرت من الدهر حتى انشتيت
فلست أبالي بخمر القــدح
كأنـــي أخو سفــر لا غـــب
تهالك من جهده وارتنح
فطوبى لجرحي إمـــا استفاض
وطوبى لقلبي إما انجـــرح
تعلمت بالنــوح سـرّ النعيــم
وأدركت بالشجو معنى الفرح

المقطع الشعري الذي بين أيدينا وما فيه من ألفاظ اختارها الشاعر (أوجاع، سكرت، انتشيت، الخمر، تهالك، جرحي، النوح، الفرح) ليعبر عما كان يختلج في نفسه من أوجاع نراه قد خلع صفة الرقود التي تكون للشخص العاقل للأوجاع، والسكر للدهر وفي الواقع هو للإنسان وما واجهه من الدهر وما ألم به فإنه قد انتشى مثلما يصل صاحب السكر إلى لذته فلم يعد يبالي بخمر القدح قد اكتفى بما حصل له، والأفعال التي أوردها (أرقدها،تهالك،تعلمت،

أدركت) أضفت القوة على النص الشعري وكشفت هذه الصورة عن الذات المعذبة وعلى الرغم من ذلك نجد أن شاعرنا امتلك قدرة إبداعية رائعة في بث روح الحركة في النص عن طريق الأفعال؛ لأن من مهمة الشاعر أن يبتكر اللغة التي تستطيع أن تعبر عن ذاتيته ومشاعره، وكل ما كان خاصاً فإنَّه يمرُّ غامضاً[٢٥].

المطلب الثالث

الموسيقى الشعرية

وللإيقاع دورٌ كبيرٌ في البناء الشعري، فالقصيدة إيقاع قبل أي شيء آخر، ويأتي في البناء منسجما مع العواطف، وقد تنوع التشكيل الموسيقي ليلائم توجهاتهم، مع غلبة القصيد على نماذج التشكيل الأخرى، الذي عدل كفة الميزان، حيث وجدوه يستوعب تجاربهم، مع ما صاحبه من تجديدات فنية داخل النص يؤازر بعضها بعضا في وحدة البناء، وقد حافظ المدنيون على القالب الموروث، وحمل في داخله سلسلة من الانفعالات التي ظهرت في البنى الصوتية والتركيبات التصويرية، تآزرت في بنية التجربة الشعرية وعكست تجديدا في الوحدة البنائية.... والجمع بين أكثر من شكل، كأن يجمع بين القصدي والتفعيلي في بناء النص الشعري، وغيرها من أنواع التشكيل الموسيقي، معززين الإيقاع بأنساق موسيقية تنسجم فيها الألفاظ والعبارات، مصاحبا فنيات أخرى داخل النص تآزر بعضها في وحدة البناء و التصوير[٢٦].

ومن ذلك قول العطّار[٢٧]:

أفق شاحب تدثر بـــــالسحـــ
ب وأغيا فيه الضباب الغمير
لا السنا ضاحك بأبهائه السحـ
م ولا النور في مداه يـــمور
فمن الحزن والجهامة قبـــــر
ومـــــن الهم والكآبة سور
وتعري المساء من ألق السحـ
ر فـــــلا روعة ولا تصوير

يرسم لنا الشاعر لوحة مليئة بالحزن فالأفق شاحب. سجل بذلك شعرا حافلا بالعاطفة النابعة من نفس معذبة وتتجلى هذه الصورة التي رسمها الشاعر في الحزن والألم المسيطر عليه ونلحظ ما عمد اليه الشاعر هنا هو تكرار

حرف الراء يؤكد ذلك معيار المهارة لدى الشاعر فاستخدم صوت الراء بوصفه عاملًا حاسمًا في بروز الجانب الجمالي لتشكيل الصورة وجاء أيضا بروي (الراء) ليكسب النص قوة التأثير في المتلقي وشد انتباهه إلى الأفكار والمعاني التي حاول التعبير عنها، وذلك لما يمتاز به صوت الراء من رنين موسيقى مؤثر فالراء من الحروف المجهورة وتكراره يعد بمثابة الجرس الذي يقرع الأسماع ليداعب إحساس المتلقي.

فالتأمل عند العطّار هو رسم لملامح معقدة تحاول أنْ تقدم صورة متواضعة للمتلقي ويبدو أنّ العطّار يحاول أن يتنازل عن كبريائه بأسلوب سلس شفاف، و بألفاظ سهلة على الفهم، مع كشف واضح للأفكار، وبهذا يكون الشاعر الرومانسي قد اجتهد في اصطياد الفكرة ووضعها ضمن إطار لوحي إبداعي، ومن ذلك قوله[٢٨]:

تاقت النفس للخلاص من الأسر
وحنت إلى المطاف الواقي
فمتى يـــــــا ترى يتـم انطلاق
ومتى يا ترى يحين انعتاقي
وشفتنا المنون ممـــا نلاقي
نتساقـــى كؤوسنـــا مترعات
قـــد كفتنا الحياة هماً وغمّاً
ولكم لـذَ في الجنانِ التساقي

فقد شحن الشاعر أحاسيسه في المقطع الشعري، وكشف عن حالته النفسية المتأزمة، فمن الكشف عن خلجات نفسه التي ترجو الخلاص من الأسر، نلحظ أنّ تكرار حرف (القاف) أعطى دلالة إيحائية تظهر منها الموسيقى اللفظية وتثير المشاعر الوجدانية في نفس المتلقي، لقد كشف الشاعر عن ثنائيات متناقضة يستشف منها قدرته على كسر هذا الطوق المحكم في ألفاظه المعبّرة، فطرح استفهاماً كبيراً يقف بين هاتين الثنائيتين، فنلحظه قد خرج عن هذه الثنائية الضدية بألفاظ تستجلب الثراء الوجداني وفتح أبواب الخلاص والانعتاق بين السجن والحرية وبين المنون والحياة.

فالقيمة الجمالية للنص تكمن في جمال الإيقاع ممزوجا بموسيقى جرس الكلمات الذي أحدثه التكرار.

وقوله[٢٩]:

يـــــا لَعُمْراً كَالزّهْرِ يَذْبُلُ عَجْلان
ويُطْوَى رَؤاهُ والجمـــــال
والحكيمُ الحكيمُ مَـــــــن خَبّرَ الدهـ
ـرَ وَلَمْ يُغْرِهِ الهَوَى والمحالُ
علمتنـــــي أنّ الطفولـــةَ شعـــرٌ
وتصاويرٌ رائعـــاتٌ وسحرُ
وأحاديثُ تُستَطابُ وَتُـــرْوَى
فكان الوجودَ حُلْم يَمُـــــرُ
يـــا لأيـــــامها العذاب الغوالي
لَيْتَهَا تُستَعادُ أو تَسْتَمِـــرُ
مـــــــن رآها فقد رأى جنة الخلـ
ـد وإن النعيم شَدَهُ وزَهْـــرُ

يتأمل الشاعر في هذه الأبيات الزمنَ و الهرمَ والأيامَ كما وردت في مختلف نصوصه الشعرية بالمعنى نفسه، وقد تفاعل كثيرا مع هذه الظاهرة، ليخلص بأن الدهر بـ (القوة الباطشة التي قضت على كل من سبقنا) ومازالت مستمرة تقضي على كل كائن حي، وهو بذلك مدرك لهذه الحقيقة فالوعي بحركة الزمان متجهة دائما نحو مظاهر الموت للإنسان كالمرض والعجز والشيخوخة والفناء، مما يعكس رهبة الشاعر وقلقه، فقد أيقن أن حياته مرهونة بين نقطتين زمنيتين (ولادة ثم موت)؛ و ثمة ملحظ عند الشاعر في رويّه، فقد انتقل من روي (اللام) إلى (الراء) لسهولة الصوت و مرونته، فكلا الحرفين شجريان متقاربان في المخرج و الصفات، فلم يتكلف في الانتقال بين القافيتين؛ فشاعرنا العطار هو الذي يقف متأملاً في أسفار الكون، وفي خلجات النفس الإنسانية إذ يدرك الكون ويحسه وينقل إلينا إدراكه وإحساسه بطريقة فنية تثير تفاعلا عند المتلقي، ومن هنا يعد التأمل نتاجًا ممزوجًا بين الفكر والوجدان، بين الشعرية الجمالية والشعورية بحيث يصل فيها الشاعر إلى حالة من الغيبوبة الفكرية والاستغراق الذهني يغط بها الإنسان في موضوع أخذه بجامع فكره، بحيث تحصل لأصحاب الفكر كي يستجمعوا أفكارهم ويعنوا بتصويرها وترتيبها لعملهم الفكري أو الأدبي[٣٠].

و بهذه الهندسة النسقيَّة- يفجر العطّار فينا شهوة الإحساس الدافئ الذي يكمن في أعماقنا؛ للإحساس بشعور الشاعر، ومعاناته واغترابه؛ أي: يستثير فينا حسّ التأمل وعاطفة التفاعل

مع النصّ؛ وهكذا، يُسَلِّمنا العطار إلى أصداء قصائده بنغمات إيقاعيَّة؛ تنساب من أنساقها اللغويَّة المنظمة؛ لنتفاعل معها من الداخل؛ بنغمات مؤتلفة تتركها تلكم الأنساق في أنساق القصيدة وعباراتها كلها؛ لتبدو أشبه بتلك الذبذبات النغمية التي تثير الأسماع لحظة الانتهاء من الفاصلة الشطريَّة؛ أو النغمة الختامية التي تثير مفاصل القصيدة كلها.

الخاتمة:

ويمكننا أن نعزو ما ذهب إليه الشاعر وما ألقت به قريحته نتيجة إحساس الشاعر بالوحدة، وشدة شعوره بالاغتراب أثار في نفسه الألم، والشقاء، والكآبة، والحزن، والشكوى، واليأس، وولّد هذا الشعور النّزعة التأملية التي عمّقت إحساس الشاعر بذاته وزادته تفاعلاً مع عناصر الكون.

١- يبدو أن إخفاق الشاعر أنور العطار في جولات الحب والحنين للحبيبة وللمرأة كان أحد بواعث الحزن لديه لذلك ورد شعره من منابع تصورات وأخيلة غير موجودة، والكثير من قصائد الشاعر التي تُعبر عن هواجسه العاطفية، وتجاربه الذاتية تتخذ من الطبيعة محركاً لها، ويتضح أن الطبيعة كانت عنصراً محركاً لذكريات الشاعر، وهي التي دفعت به إلى الإفضاء بمواجعه، وأشجانه، ومن هنا فالكثير من قصائده تجمع بين الجانب العاطفي الذي يبث فيه والجانب الوصفي الذي يصور منه مشاهد الطبيعة الخلابة.

٢- جاء نصّه الشعري وسيلة للتعبير عما يحس به من حالة اغترابية، ويتضح لنا أنّ النص موزعٌ بين الذاتية الحسية، والواقعية الحية، ولاسيما عندما يكون بصدد طرح الشكوى والتشتت لدى الشاعر.

٣- يميل الشاعر أنور العطار في صياغة قصيدته إلى اللقطات الحوارية التي تجتمع فيها عناصر الصياغة الشعرية كالألفاظ والإيقاع والصور، مما أضفى الحركية على عباراته.

٤- بنى الشاعر ألفاظه الوجدانية بوعي لغوي يفصح عن إحساسه بالعلاقات بين الألفاظ وتآلف الألفاظ في السياق الشعري فجاءت ألفاظه سهلة وواضحة.

٥- يظهر أن منابع الشكوى لديه تجريبية نابعة من تجارب الإحباط والفشل التي مرَّ بها الشاعر فالشكوى لديه مرآة تعكس

الوجع الداخلي الذي يعاني منه الشاعر فجاءت ألفاظه قريبة المعاني وواضحة الدلالات.

٦- انتظام الإيقاع الموسيقي عبر الصور التي أوردها الشاعر؛ فالتكرار في شعر العطّار أحدث تنوعا في لغة السبك، و كذلك خلق استقطاب أحاسيس المتلقي و أضفى على النص متعة الإيقاع الموسيقي عند تناغمه الداخلي، وانسجامه الصوتي.

الهوامش:

١- د. مريم البغدادي التأصيل الفني للبكائية القديمة في الشعر الجاهلي، مجلة أبحاث اليرموك، مجلد (٤)، عدد (١)، ١٩٨٦م، ص٣١.

٢- ماهر الرحيلي : التجربة الشعرية بين أحمد شوقي وأحمد الغزاوي ، دار كنوز المعرفة، جدة، الطبعة الأولى ، ١٤٢٨هـ ، ص ٦٢

٣- د. طه أبو كريشة: أصول النقد الأدبي، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص ١٦٤.

٤- عقيلة محمد قرني : بواعث الشعر في النقد العربي القديم ،نادي جدة الأدبي الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ، ص ٨٤

٥- د. شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، مصر، الطبعة السابعة ص١٥٠

٦- عبد الرؤوف ثابت مفهوم الطب النفسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى ١٩٨٧م ،ص ١٠٥

٧- إرنست فيشر: ضرورة الفن، ترجمة أسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧١م، ص ٢٧

٨- ديوان ظلال الأيام ص ٧٦

٩- جواد رشيد مجيد، الشكوى في الشعر العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة المستنصرية، ١٩٨٨م :٤

١٠- ديوان ظلال الأيام ص٨

١١- ينظر: سهيلة عمرون جماليات الاتجاه الوجداني في الشعر العربي الحديث قصيدة النهر المتجمد لميخائيل نعيمة أنموذجا ، جامعة محمد بوضياف الجزائر ٢٠١٧م ص٩٩

١٢- أنور العطار، ديوان ظلال الأيام ص٤٨

١٣- المصدر نفسه :٧٧

١٤-المصدر نفسه :٣٢

١٥- ديوان ظلال الأيام ص:١١٥

١٦-ينظر: د مصطفى غالب ، تغلب على الخوف ، مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١م ص٣٣

١٧-د محمد حسن عبد الله، الحب في التراث العربي، عالم المعرفة (سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب) الكويت،١٩٨١م ص ٣٥

١٨- د حسني عبد الجليل يوسف : الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي، طبعة مكتبة النهضة المصرية د.ت ص١٤٥

١٩- أنور العطار ظلال الأيام ص١٣٢

٢٠- ينظر: عيسى الناعوري أدب المهجر، وزارة الثقافة، عمان ، مطبعة السفير، ٢٠١١: ٨٢

٢١- ينظر جواد رشيد مجيد: الشكوى في الشعر

العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري،ص ٨١

٢٢- أنور العطار، ديوان ظلال الأيام ص١٣٨

٢٣-المصدر نفسه ص ٣٨

٢٤- ينظر: دلال هاشم، الصورة الشعرية في شعر الغزل العذري في العصر الأموي ،دار الحوراء للنشر ، ٢٠١١م ص ٥٣

٢٥- أنور العطار، ديوان ظلال الأيام ص٧٢

٢٦- الشيدي فاطمة، المعنى خارج النص، أثر السياقات في تحديد دلالات الخطاب، دار نينوى دمشق ٢٠١١م ص٨٨.

٢٧- ينظر إحسان عباس، فن الشعر، دار الثقافة بيروت، ط٦، ١٩٧٩م ص

٢٨- أنور العطّار ديوان ظلال الأيام ص ٤٥

٢٩- ديوان الرباعيات ص٤٣

٣٠- ينظر: التونجي محمد "المعجم المفصل في الأدب "،ج١ ، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ، ط ٢ ، ١٩٩٧ م ، ص ٢٢٠

المصادر والمراجع:

١- إحسان عباس، فن الشعر ، دار الثقافة بيروت ن ط٦، ١٩٧٩م

٢- إرنست فيشر : ضرورة الفن، ترجمة أسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٧١م

٣- أنور العطار ديوان ظلال الأيام، دمشق، ١٩٤٨م

٤- جواد رشيد مجيد، الشكوى في شعر القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير ، كلية الآداب جامعة المستنصرية ،١٩٨٨م

٥- حسني عبد الجليل يوسف: الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي، طبعة مكتبة النهضة المصرية د.ت

٦- دلال هاشم، الصورة الشعرية في شعر الغزل العذري في العصر الأموي

٧- سالم الحمداني وفائق مصطفى، الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره ، جامعة الموصل ،

٨- سهيلة عمرون جماليات الاتجاه الوجداني في الشعر العربي الحديث قصيدة النهر المتجمد لميخائيل نعيمة أنموذجا ، جامعة محمد بوضياف الجزائر ٢٠١٧م

٩- شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، مصر، الطبعة السابعة

١٠- طه أبو كريشة: أصول النقد الأدبي، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م

١١- عبد الرؤوف ثابت مفهوم الطب النفسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى ١٩٨٧م

١٢- عقيلة محمد قرني: بواعث الشعر في النقد العربي القديم ،نادي جدة ، - الأدبي الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ.

١٣- عيسى الناعوري، أدب المهجر ، وزارة الثقافة ، عمان ، مطبعة السفير ، ٢٠١١

١٤- ماهر الرحيلي: التجربة الشعرية بين أحمد شوقي وأحمد الغزاوي، دار كنوز المعرفة، جدة، الطبعة الأولى ، ١٤٢٨هـ ،.

١٥- محمد حسن عبد الله ، الحب في التراث العربي، عالم المعرفة (سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب) الكويت ،١٩٨١م

١٦- مريم البغدادي، التأصيل الفني للبكائية القديمة في الشعر الجاهلي، مجلة أبحاث اليرموك، مجلد(٤)، عدد (١) ١٩٦٨م.

١٧- مصطفى غالب، تغلب على الخوف، مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الثالثة،١٩٨١م.